التحالف الإسلامي العسكري لمحاربة الإرهاب
ISLAMIC MILITARY COUNTER TERRORISM COALITION

دوافع الإرهاب

الأستاذ/ إيهاب أحمد عطيه
باحث في مجال محاربة الإرهاب

دوافع الإرهاب

إصدار شهري يصدر عن التحالف الإسلامي العسكري لمحاربة الإرهاب

المشرف العام

اللواء الطيار الركن محمد بن سعيد المغيدي

الأمين العام للتحالف الإسلامي العسكري لمحاربة الإرهاب / المكلّف

رئيس التحرير

عاشور بن إبراهيم الجهني

مدير إدارة الدراسات والبحوث

ملاحظة: الأفكار الواردة في هذه الدراسة تعبّر عن رأي الكاتب ولا تعبّر عن رأي التحالف بالضرورة

دوافع الإرهاب

الأستاذ/ إيهاب أحمد عطيه

باحث في مجال محاربة الإرهاب

إن الإرهاب أيّما كان لونه أو جنسه أو مكانه لن ينحسر أو ينكسر إلا بمعالجة أسبابه، فالإرهاب لايولد من فراغ ولايحيا في فراغ، فهو نتيجة لمقدمات واقعية وليس مقدمة لنتائج متوارية، فتدابير محاربته[1] الأمنية مهما بلغت كفاءتها ليس باستطاعتها أكثر من الحد منه، أو إرغام فواعله على الكمون، أو كسر موجة من موجاته بأحسن الأحوال، فالإرهاب بحاجة لمكافحة من نوع مختلف تنطلق من رؤية تربط بين العلم بتنظيراته الأكاديمية والواقع بظروفه ومتغيراته .

من هنا تبدو أهمية دراسة مسببات الإرهاب، فهناك اقترابات[2] متنوعة حاولت تفكيكها، بعضها أخذ بُعداً سوسيولوجياً يستند لخلفيات سياسية واقتصادية واجتماعية، والآخر ذا بُعد ثقافي يعتمد على أطروحات تبحث في طبيعة المكونات الثقافية والحضارية بالإضافة لاقترابات أخرى مستجدة كاقتراب سوسيولوجيا الأديان الذي يقدم تفسيراً أكثر شمولاً للظواهر الإنسانية يراعي أبعادها الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية.

وقد خلُصت تلك الإقترابات التى يُعبر تعددها عن تَعقد الظاهرة الإرهابية وتشابك أبعادها، لما يمكن اعتباره مسطرة عامة تفسر أسباب إرهاب الأفراد والجماعات، سنحاول إيضاحها بتفكيك ماتحويه من عوامل سياسية واقتصادية وإجتماعية وثقافية وايديولوجية وتعليمية وتاريخية وشخصية نفسية وإعلامية.. فيما يلي:

أولاً: العوامل السياسية

تُعد العوامل السياسية بجناحيها الخارجي والداخلي واحدة من أهم أسباب الإرهاب،كالنزاعات الإقليمية، وغياب العدالة الدولية، وانتهاك حقوق الشعوب، والسياسات المناهضة للأديان السماوية، والاستعمال الخاطئ لمفهوم حرية التعبير، والاستغلال الإمبريالي لموارد الشعوب النامية، وتطورات السياسة العالمية ومساندتها لكيانات بعينها على حساب الشعوب المحتلة، والاعتداء على مصالح الدول ورعاياها بالخارج، وعسكرة العولمة، ومساندة الديكتاتوريات.

فالعوامل السياسية الخارجية التي تشكل في مجموعها النظام الذي يتحكم في العالم لها دور لا ينبغي إفلاته في خلق الإرهاب، فمراجعة سريعة للمسوغات التي تسوقها التشكيلات الإرهابية لتبرير عملياتها العنيفة تؤكد هذا المعنى، وهو ما دفع الفيلسوف الفرنسي جان بودريار لأن يؤكد على أن الدلالات الذهنية الرمزية لهجمات سبتمبر كشفت عن أن طبيعة النظام العالمي هي التي ولدت الشروط الموضوعية لذاك الفعل العنيف المباغت[3].

من هنا، ومع تسارع ثورة الإتصالات والتكنولوجيا، بتنا أمام إرهاب متعولم تمزج دوافعه وسماته وأدواته ما بين عوامل نابعة من بيئات داخلية وخارجية، وعلى الرغم من أن هذا الإرهاب المعولم قد يمارس عنفه داخل بيئات داخلية، إلا أنه يستمد ذرائعه من قضايا دولية يمزجها مع مظالم محلية يُحمّلها هي الأخرى لقوى عالمية .

والإرهاب المُعولم ليس قاصراً على ذاك الذى يتبنى أيديولوجيات دينية أو الذى يرفع شعارات متأسلمة، بل يشمل الإرهاب القادم من دوافع قومية منحرفة، خاصة من جانب اليمين المتطرف الغربي، بعد أن طرح قضايا اكتسبت بُعداً عالمياً، مثل معاداة الهجرة واللاجئين، والخوف المرضي من الإسلام والمسلمين الذي يعرف بالإسلاموفوبيا.

أما العوامل السياسية الداخلية فتتنوع ما بين القهر السياسي، وغياب الحكم الرشيد والحريات، وشيوع المظالم، وانتشار المحسوبية، والفساد المؤسسي، وغياب العدالة الاجتماعية، وفشل أيديولوجيات تفرضها نظم الحكم على غير إرادة الشعوب، وغلق منافذ العمل المدني والسياسي أو تقييدها، وعدم الاستجابة لمطالب الجماهير، وفقدان الثقة في إمكانية التغيير السلمي.

وكالفجوة السياسية التي تنشأ عن تسارع عمليات التحديث على المستوى الاجتماعي وتراجعها على المستوى السياسي[4] كأن تُحكم أجيال اندمجت بعصر تكنولوجيا الاتصالات الرقمية على نحو خلق لديها قناعات تدعم حقوق الإنسان بمنظومات سياسية متراجعة توقفت أفكارها عند حدود ما كان يفعله الرجل الكبير برواية جورج أورويل 1984.

ومثل مايجري بالغرب من تهاوي لفعالية نُظم حكم يُفترض أنها ديموقراطية بعد أن فقدت كثير من مقوماتها الرئيسية، وكافتقاد الأنظمة الحاكمة لرؤية واضحة في التعامل مع الدين، كأن تدور سياساتها تجاهه ما بين النفي والاستدعاء بحسب مصالحها، وكاتباع الحكومات سياسات أمنية تخلط في تشددها بين الإنسان السَّوي والآخر الضالع بدوائر الإرهاب.

أما إذا كانت تلك السياسات تتبع نهجاً عمدياً أو عشوائياً أو فردياً يؤدى للإهانة أو الإذلال، لا سيما تجاه الطبقات التي تعاني أصلاً من التهميش، من خلال الاستيقاف العشوائى المتكرر لمجرد الإشتباه، فإن ذاك يفتح باباً خلفياً للاستقطاب والتجنيد لصالح الجماعات الإرهابية[5].

وقد جسدت أهمية دور العوامل السياسية الداخلية والخارجية في الدفع نحو الإرهاب، خاصة المتأسلم، دراسات علمية متعددة، فوفقاً لبحث أجرته سيريل بينارد، فإن الإرهاب المتأسلم يعود فى جزء رئيسى منه للأزمة التى يمر بها العالم الإسلامى بسبب الفشل فى تحقيق النمو والانفصال عن التيار العالمى المهيمن نتيجة لفشل تجاربهم السياسية بعدما جربوا الوطنية القُطْرية والقومية العربية والثورة الإسلامية دون نجاح، مما ولّد الإحباط والغضب .

أما ما حدث ويحدث بالقضية الفلسطينية فلا شك أنه يمثل عاملاً أكثر من فاعل في تصعيد العنف، فلا شك أن ما جرى بفلسطين وأفغانستان والعراق مثّل دافعاً لايمكن نفيه في رفع معدلات العنف المتأسلم، فهناك دراستان الأولى أصدرتها السعودية والثانية مؤسسة دراسات إسرائيلية في عام 2006، اتفقتا على أن معظم الأجانب الذين قاتلوا بالعراق تحت لواء تنظيم القاعدة الإرهابي لم يكونوا على صلة بدوائر العنف قبل غزو العراق، بل جرى تحولهم وانصياعهم لها بسبب الغزو الأمريكي[6].

فالعوامل الخارجية بلا شك مثلت دافعاً سياسياً للإرهاب المتأسلم بالسنوات الفائتة، لكن تبقى الدوافع المحلية هي الأهم في تكوين مسببات الإرهاب بشكل عام، إذ حينما تكون عوامل الغضب الداخلية عند مستويات يمكن التحكم فيها، فإن القضايا الدولية تصبح تلقائياً غير قادرة وحدها على حشد التشكيلات الإرهابية، سواء أكانت متأسلمة أم غيرها، وإن كان ينبغى هنا مراعاة أن الكثيرين من أبناء الشرق الأوسط يُحمِّلون سياسات الغرب، ولو جزئياً، مسئولية السخط الداخلى، بتأييدها لنظم الحكم السلطوية وتفضيلها للاستقرار على التغيير.

ثانياً: العوامل الاقتصادية

أما العوامل الاقتصادية فكان ينظر لها دائماً على أنها قد تكون سبباً مباشراً في تفجر الإرهاب استناداً على رؤية تنطلق من أن الإرهاب يأتي كرد فعل على السياسات الاستعمارية التي اتخذت طابعاً اقتصادياً بعد أن كان عسكرياً، أو نتيجة للأزمات المالية والاقتصادية، أو لهيمنة الدول الرأسمالية والكيانات الاقتصادية الكبرى على الاقتصاد العالمي.

أو بسبب البطالة، أو الفقر، أو انخفاض الدخل، أو فشل خطط التنمية الاقتصادية، أو غياب العدالة في توزيع الثروات، أو اتساع الفوارق الطبقية، فهناك من يرى أن الإرهاب هو حرب الفقير، فظهور الطبقات الطفيلية، وانتشارها لاسيما بالدول المتراجعة اقتصادياً، وإنفاقها ببذخ مُثير في ذات الوقت الذي لا يتوافر فيه لغيرهم، خاصةً من الشباب، أبسط الإمكانات، مع قيام الإعلام بعرض المنتجات والسلع بأساليب استفزازية تُثير عوامل الحرمان، يولّد مشاعر سلبية تعبر عن نفسها بالعنف والإرهاب.

أيضاً التأثيرات السلبية للعولمة الاقتصادية شكّلت عاملاً حافزاً للإرهاب بعدما قلّصت من دور الحكومات في الاقتصاد، ومكّنت الرأسماليات الكبرى والمؤسسات الاقتصادية والمصرفية العالمية، المُهيمن عليها من قِبلها، من التحكم بصورة أكبر في الاقتصاد العالمي، وقلّصت من مساحة سيادة الدول لصالح الكيانات الاقتصادية المنافسة.

فالعولمة الاقتصادية، بعدما ضاعفت من مكاسب الدول الغنية، خلقت مناخاً حاضناً للإرهاب بسبب ما خلفته من شعور بالمظلومية نتيجة للاختلالات التي أوجدتها بهياكل الأسواق النامية، واستبعادها لقطاعات غير محدودة من العاملين فيها، وإضعافها لقدرة قطاعها الخاص على مواجهة الشركات متعددة الجنسيات، وإضعافها في الإجمال لقدرات بعض الدول الفقيرة أصلاً على نحو قلل من قدرتها على الانفاق العام بمجالات عدة من بينها المجال الأمني[7].

لكن سيطر[8] منذ آواخر الثمانينيات، وبصورة أكثر حدة بعد أحداث سبتمبر، ميلٌ قوي على أغلب الدراسات لنفي وجود علاقة بين الاقتصاد ونشوب الإرهاب، بشكل يعود غالباً لرغبة الدول الكبرى في التخلي عن مسئولياتها التنموية تجاه العالم الأكثر فقراً، أو لرغبة النيوليبرالية الاقتصادية، التي نمت وسيطرت على المؤسسات المالية الدولية، في نفي الدور السلبي لسياساتها في تفجّر الإرهاب.

وكانت الدراسة العمدة هنا تلك التي قام بها الاقتصادي الأمريكي آلان كروجر مع التشيكية جيتكا ماليكوفا عام 2002 وخلصا فيها إلى أن «أي ارتباط بين الفقر والإرهاب، هو ارتباط غير مباشر، ومعقد وربما ضعيف، فبدلاً من النظر إلى الإرهاب كإستجابة مباشرة لطبيعة الفرص المتاحة في السوق أو الأمية أو الجهل، نرى أنه سيكون أكثر دقة أن يُنظر إليه كاستجابة لظروف سياسية ومشاعر طويلة المدى بالإهانة أو الإحباط الذي ليس له كبير علاقة بالاقتصاد»[9].

بالطبع هناك دراسات أخرى نتفق معها، تؤكد، بناءًا على معلومات ميدانية، أنه من غير الصحيح أن الفقر لم يلعب دوراً فيما يتعلق بالإرهاب باعتباره عاملاً يسهل من عمليات التجنيد، ويزيد من ضعف قدرات الدول الفقيرة على مواجهته أمنياً، بالإضافة لأن عجز الحكومات عن تقديم الخدمات الأساسية لمواطنيها، يسهّل من استسلامهم لمن يستجيب لسخطهم وتذمرهم، بل يدفعهم للاستجابة لعوامل الجذب والإغراءات الاجتماعية التي تقدمها التنظيمات الإرهابية.

ثالثاً: العوامل الاجتماعية

مازالت العوامل الاجتماعية تلعب دورها السلبي في الدفع نحو الإرهاب رغم ظهور دراسات تهز الثقة في النظريات العلمية التي تربط بين تردي الأوضاع الاجتماعية والإرهاب، اعتماداً على تحليلات إحصائية انتقائية تركز على دائرة بذاتها من منفذي العمليات الإرهابية دون غيرهم من الفاعلين بدوائر الإرهاب الأخرى.

وتتنوع هذه العوامل ما بين ضعف الانتماء، والإحباط، وعدم المساواة، والفجوة بين الواقع والمأمول، والسخط الاجتماعي، وتآكل الطبقة المتوسطة، وفقدان التواصل الاجتماعي، وضعف الشراكة الوطنية، والعشوائيات، وتفكك الأسرة وانهيار أدوارها الأساسية، وفساد الرفاق، والغربة، وافتقاد الإحساس بالهوية والمكانة الاجتماعية، والخوف من الغرباء وبُغضهم.

فالبيئة الاجتماعية التي يتعايش فيها الأفراد لها أثرها البالغ في جنوحهم أو استقامتهم، فالأسرة التي هي المحطة الأولى في حياة الإنسان، إذا صلحت، صلح الإنسان غالباً، والعكس صحيح، والوسط الشبابي الجامعي إما أن يكون بيئة صالحة لتبادل الآراء النافعة وتنمية المواهب الدفينة، أو يكون أرضاً خصبة للجنوح نحو العنف والإرهاب[10].

أيضاً الإحباط له دور أساسي في تَفجُّر السلوكيات العنيفة، فعندما تنعدم الفرص السانحة، تطفوا مشاعر القمع والخوف[11] ويتحول الإنسان المحبط لقنبلة قابلة للتفجير

في أي اتجاه، سواء أكان إرهاباً أو سلوكاً آخر إجرامياً أو خاطئاً.

فالتجربة التاريخية تؤكد على أن العنف يولد من غياب العدالة الاجتماعية، فالتفاوتات الواسعة بين البشر[12] تؤدى، إذا لم يُحسن التعامل مع آثارها السلبية، لفجوات اجتماعية ونفسية من شأنها إشعال وقود العنف داخل المجتمع.

فالظلم الذي يستهدف الأفراد أو الجماعات أو المؤسسات يعد عاملاً مركزياً في فهم الإرهاب، فالرغبة في الانتقام، استجابةً لمعالجة الظلم الذي يلحق بالشخص أو بغيره، يمكن أن تكون دافعاً محركاً لقوى العنف تجاه الآخرين، خاصةً نحو الأشخاص الذين يُعتقد أنهم مسئولون عن هذا الظلم[13].

والمناطق العشوائية التي يحيا أفرادها داخل مساكن متهالكة أو خشبية أو من صفيح دون أن يكون لهم عمل مستقر، تُعد مصدراً مُهماً لقوى الإرهاب البشرية، فجيل العشوائيات تتملكه مشاعر الظلم الاجتماعي والكراهية والاغتراب الاجتماعي بشكل يدفع نحو سلوك العنف، لكن تحت غطاء أيديولوجي.

ومن دوافع الإرهاب الاجتماعية أيضاً الرغبة في الدفاع عن الهوية الجماعية باعتبارها تحفظ المكانة. وكذلك فإن إخفاق المشروعات التنموية وتراجع دور الدولة في الميدان الاجتماعي يمثل عاملاً - ولو جزئي - في بروز العنف والإرهاب .

وتلك المشكلات الاجتماعية تعمل بالبيئات الغربية كما هي بالشرقية، فالمجتمعات التي يخرج منها الإرهاب المتأسلم بأوروبا هي تجمعات مهاجرة مشتتة ومتباينة تعاني من فقدان الهوية والانغلاق على الذات والظلم والتهميش الاجتماعي والإهانة والبطالة، فالنشء المسلم في أوروبا هو الأكثر معاناة من البطالة[14].

وعلى هذا، فإنه يمكننا القول بأن الدوافع الاجتماعية تمثل عاملاً مُعتبراً في الاستقطاب لصالح التشكيلات الإرهابية، فهي من تُشكّل واقعاً اجتماعياً متردياً يخلق قاعدة بشرية، خاصة من الشباب، ساخطة وقابلة للانفجار، وإن كانت هناك محاولات دائبة من بعض الحكومات لتغييب مثل تلك العوامل لاستبعاد مسئوليتها عن نشوئها .

رابعاً ..العوامل الثقافية[15]

أما العوامل الثقافية التي تلعب دوراً سلبياً في التحفيز على الإرهاب فلها أنماط تتنوع ما بين مشاكل الهوية، وغياب الوعي الرشيد، والفراغ والاستلاب الثقافي، والتعصب الفكري، والتمسك بقيم بالية، وانتشار ثقافة العنف، وتجذر عقيدة الثأر، ورفض التعامل مع الآخر وشيطنته، وشيوع الأحادية على حساب التعددية.

وأهمية سلامة البيئة الثقافية تبدو بشكل واضح عندما نعلم أن الاستجابة لمفاهيم العنف تنمو حينما تكون هناك ثقافة مساندة لها بالمجتمعات التي تنتشر فيها، فدراسات علم النفس الإعلامي تؤكد أن رواج سلعة معينة لا يتوقف على مجرد الإعلان عنها، وإنما أيضاً بوجود ثقافة مساندة لها، ففرص الإرهاب تتصاعد بالمجتمعات العنيفة بطبعها، وبتلك التي تأخذ بعقيدة الثأر أو تروج لمبادئ غير سلمية .

فالإرهاب المتأسلم، خاصة الذي يأتي من قِبل أجيال ناشئة بالغرب أو من شباب يحيون ببيئة ثقافية غربية، يُرجعه البعض لما يواجهونه من صدمة حضارية ناتجة عن نمط الحياة الغربية المتمثل في أقصى درجات نموه في نظام العولمة، الذى يُعدّ في نظر هؤلاء آخر بوابة للخروج من عباءة الدين[16].

أيضاً شيوع ثقافات تدعم الغيبيات الأرضية دون مراعاة لأبسط حقائق الواقع من شأنها خلق بيئة تساعد على الاندفاع نحو الفعل الإرهابي، كذلك التهميش الثقافي والإحساس بالتبعية الثقافية يدفع من يعانون منه من ذوي الرؤى الأحادية للتحيز لثقافتهم والسعي لفرضها بالقوة.

في حين أن لغة الخطاب المشحون بشيطنة الآخر وكراهيته كانت سبباً في خروج إرهاب متأسلم يرفع شعار (الفرقة الناجية) أو (جاهلية المُختلف) وصدور إرهاب عرقي من قبائل الهوتو ضد التوتسي براوندا، ومن جماعات يمينية متطرفة تركز على قومية الأفريكانز البيضاء بجنوب أفريقيا[17] ومن النازيين الجدد واليمين المتطرف بالغرب.

كما أن الانقسامات الإثنية والثقافية تُعد فرصة مواتية لتعبئة المجتمعات باتجاه الفعل الإرهابي، أيما كان اسمه أو شعاره أو جذره، لأنها تؤدي في غالب الأحيان لخلق مصالح عرقية أو دينية يستلزم الدفاع عنها توظيف أفكار ورؤى متطرفة عنيفة، ففي ليبيريا على سبيل المثال، استغلت هوية الماندنغو المسلمين، في أثناء الحرب الأهلية وبعدها، لتحقيق مكاسب اقتصادية واجتماعية[18].

لكن هنا ينبغي الالتفات لأن قدرة الثقافة على التأثير في الظاهرة الإرهابية ليست مطلقة، أو أنها تعمل بشكل منفرد بعيداً عن البيئة السياسية والاقتصادية والاجتماعية المحيطة بها، بل إن فعاليتها تأتي في إطارها ومن خلالها، فعلى حد قول بيرتران بادي «Bertrand Badie» لا يوجد تفسير ثقافي لحالة نقية، إنما لابد أن نأخذ بالاعتبار الممارسات الاجتماعية [19].

خامساً .. العوامل الأيديولوجية[20]:

وفيما يتعلق بالعوامل الأيديولوجية، فلا شك أنها تلعب دوراً بالغ الأهمية في نزوح البعض باتجاه الإرهاب، لا فرق في هذا بين أيديولوجيات دينية أو مذهبية أو فلسفية أو سياسية غربية أم شرقية، وإن كان تأثيرها يتعاظم إذا ما كانت منابعها دينية وبمجتمعات أكثر ارتباطاً بالدين بشكل عام.

فلاشك أن العقائد أو السياسات المتطرفة أو العنيفة بذاتها، أو التفسيرات المنحرفة لنصوص الأديان، أو التعامل معها دون بصيرة، أو بأجندة مسبقة تخدم توجهات بعينها، أو اختلال العلاقة بين العقل والنقل في النظر لثوابت الأديان، أو رؤية العالم بنظرة منغلقة، كلها عوامل تدفع إلى الإرهاب.

وعلى الرغم من تسليمنا بالأهمية البالغة لتلك العوامل الأيديولوجية، إلا أننا نرى أن هناك تضخيماً شديداً في دورها بشكل يختزل الظاهرة الإرهابية ويبعدها عن عوامل أخرى فاعلة في نشوئها واستمرارها، فقد عشنا زمناً طويلاً أسرى مقولة أن «العنف يبدأ فكراً» التي صكها الفقيه القانوني وليم سليمان قلادة وكررها كثيرون بعده.

ثم أثبت الواقع أن هذا ليس صحيحاً على إطلاقه، فهناك إرهاب يبدأ أفعالاً، ثم يبحث عن فكرة يتدثر بها أو يتخفى وراءها لتمنحه شرعية مزعومة أمام نفسه ومجتمعه، وهو ما عبر عنه أوليفييه روا، "Olivier Roy"، أستاذ الفلسفة الفرنسي،[21] بقوله «إن الإنسان يتجه إلى التطرف، ثم يبحث عن المحتوى الفكري والأيديولوجي الذي يناسبه ليحتضن راديكاليته تلك».

فالعامل الأيديولوجي قد يكون مركزياً ومتفوقاً على باقي العوامل لدى زعماء وقادة وأمراء التشكيلات الإرهابية، أما باقي المستويات التنظيمية، فالمسألة غالباً ما تكون مختلفة بشكل كبير على نحو يتطلب النظر بكل حالة على حدة لتحديد أياً من المؤثرات التي حركت بالفعل بداخله طاقات العنف.

فعلى مستوى الإرهاب المتأسلم مثلاً، لاحظنا أن هناك نمطاً بدأ مع بروز القاعدة وتصاعد مع داعش، يتمثل في ظهور تشكيلات إرهابية ليس لها تكوين عقائدي وفقهي على نحو ما كان بالسابق في ظل التنظيمات الكبرى كالجماعة الإسلامية –التي تنسب نفسها لصحيح الإسلام– والجهاد بمصر، وإنما يحركها ويدفعها للعنف أشكال من الانتقام تغلفها لاحقاً بتفسيرات فقهية لتضفي على نفسها شرعية تبرر أعمالها، فالإرهابي الداعشي يقتل ويذبح دون أن يقرأ كتاباً إسلامياً واحداً ولو في الاتجاه الخاطئ.

بل إن هذا النمط الإرهابي ليس جديداً على إطلاقه، فقد كان له جذوره بالسابق، فالقول بأن التنظيمات الكبرى القديمة كانت تعتمد على مشروعات فكرية متكاملة قبل تنفيذها لمشروعاتها الإرهابية يصعب التسليم بصحته بشكل تام، فالجماعة الإسلامية التي ارتكبت أفظع العمليات الإرهابية بمصر بتسعينيات القرن المنقضي، قبل ان ينجح الأمن في تحويلها باتجاه العمل السلمى في تجربة فريدة، غالبية أدبياتها كُتبت بالسجون بعد ما تورطت بالإرهاب .

من هنا، فإن التركيز بشكل مبالغ فيه على العامل العقائدي أو النص الديني بقراءته الخاطئة كسبب أساسي ووحيد للإرهاب المتأسلم يمثل اختزالاً مُخلاً، بل إنه قد يخفي وراءه رغبةً في إخفاء الدوافع الأساسية له التي تتمثل في خطاب المظلومية والانتقام السياسي والدوافع الاجتماعية والاحتقان الطائفي والمذهبي[22].

تماماً كما أن الحديث المبالغ فيه عن أهمية تجديد الخطاب الديني لمواجهة الإرهاب المتأسلم يمثل أحياناً هروباً من سلبيات الواقع دون أن ينفي هذا حاجتنا له، شريطة ألا يمس أصول الدين أو يُفرغه من مضمونه أو يُتخذ ذريعة للهجوم على تراثه النقي ومؤسساته ورجاله المُخلصين، تحت دعاوى خادعة تستظل زوراً وراء الحرية والعقلانية والموضوعية .

فالتركيز المتصاعد على قضية تجديد الخطاب الديني الإسلامي بالشكل الذي يدفع له البعض، حيث التشكيك في ثوابت الإسلام الصحيحة ونصوصه المؤكدة تحت غطاءات تخفي توجهات مناهضة لفكرة الدين أصلاً، يمكن أن يتحول لعامل دافع لنشوء الإرهاب.

اللافت هنا أن جانباً من الغرب، الذى يتحدث بواقعية علمية، يدرك خطأ التهويل في تناول تأثير العوامل العقائدية أو الدينية التي يزعمها الإرهابيون، خاصة في حالة الإرهاب المتأسلم، فها هي ألمانيا مثلاً تؤكد في كلمتها بالمؤتمر الدولي للإرهاب، الذى عقد بالرياض عام 2005، على أنه «لا يجب الاقتصار في تقصّي أسباب وجذور الإرهاب على تأويل الكتابات الدينية».

لكن كل هذا لا يعني إنكاراً لدور العوامل الأيديولوجية في السياق الإرهابي، لكننا فقط نرفض المبالغة فيه على حساب عوامل أخرى أكثر فاعلية، أما القول بأن الإرهاب المتأسلم ظاهرة استثنائية يجب النظر لها باعتبارها حالة استثنائية لها آليات عملها الخاصة التي تتحرك بمعزل عن واقعها الاجتماعي والسياسي، انطلاقا من أن الثقافة الإسلامية لها خصوصيتها المنعزلة عن العالم، كلامٌ لا أظنه يستحق النظر، فالمسلمون لا يحيون بكوكب آخر

وليسوا من طبيعة بشرية مختلفة. ولعل فيما دلت عليه استفتاءات معهد جالوب العالمي من أن العقيدة ليست هي العامل المميز المسؤول عن التطرف المتأسلم ما يكفي في هذا الصدد[23].

سادساً .. العوامل التعليمية

أما التعليم فكان ومازال وسيظل على رأس أولويات مختلف البلدان، فهو ليس فقط قاطرة التقدم، لكنه أيضاً باب حتمي لسد ثغرات تشعل نيران الإرهاب، بتشكيله لوعي الأفراد وإكسابهم لمعارف وقيم تتوافق مع الهويات الدينية والوطنية.

وأمام التحديات التي واجهتها النظم التعليمية، في ظل تنامي مؤسسات المجتمع المدني وطغيان العولمة واتساع الفضاء المعرفي وتداخل النظم والمعارف، ظهرت الحاجة لنظام التربية المدنية الذى يُعنى بتزويد الناشئة بالمعارف والمهارات التى تتوافق مع قيم الانتماء والديمقراطية واحترام القانون والآخرين[24].

وأهمية تلك التربية المدنية تبرز في أن فقدانها لمعانيها يكاد يكون متساوياً مع الجهل في الدفع نحو الإرهاب، فالتعليم السلبي الجامد الذي لا يؤسس لبناء عقلية مرنة قادرة على البحث والاستنباط من أرضية تحافظ على الموروثات النقية، يصب بدرجة أو بأخرى مع التعليم المنخفض والجهل فى صالح الإرهاب.

فخطورة التعليم ليست فقط في غيابه وإنما أيضاً بطبيعة مكوناته وطريقة استجابة من يتلقونه، فالمشكلة الحقيقية تتركز في أن يؤدي النظام التعليمي لخلق عقول تقليدية[25] تحيا بالماضي، أو عقول أداتية تلتزم على المستوى الشكلي بالإجراءات دون هدف، عقول توظف الوسائل لخدمة غايات دون تساؤل عن مضمون هذه الغايات[26].

فالعقل التقليدي والأداتي أو الوظيفي يمهدان الطريق لنشأة العقل الإرهابي، الذي يدفع صاحبه إلى العنف من خلال رؤيته الضيقة أو السلبية لكل ما حوله، واستجابته لما يلقى عليه من تعليمات أو تكليفات دون بحث في مشروعيتها أو نتائجها.

ومن المعلوم أن هناك ضغوطاً خارجية مُورست عقب تفجيرات سبتمبر لإدخال تعديلات بمناهج الدول الإسلامية الدراسية بدعوى تنقيتها مما يدعم الإرهاب، وهو ما عبرعنه تقرير نشرته مجلة يواس نيوز آندوورلد ريبوت الأمريكية بعنوان قلوب وعقول ودولارات جاء فيه «أن حرب الأفكار والعقول [27]هي الأهم على جبهة المواجهة بين العالم الإسلامى وأمريكا ومن ورائها العالم الغربي».

وقد ترافق مع تلك الضغوطات تواترات إعلامية علمانية داخلية تدعو لعدم الاهتمام بالمناهج الدينية وجعلها أكثر هامشية، بل وإلغاء المعاهد الدينية بالكلية، والحد من أنشطة وميزانيات المؤسسات الدينية الوسطية.

والحقيقة أن مثل تلك الدعوات تفتقد للرؤيا السديدة، هذا إذا ما افترضنا سلامة نوايا أصحابها، فتهميش الدين من المناهج التعليمية يعني ترك فراغات كبرى بأذهان الأجيال القادمة تجاه قضية حيوية تمثل حاجة أساسية لها شئنا أم أبينا، ومن ثم فهؤلاء الناشئة سيسعون لتلبية حاجتهم من السبيل الذي سيتيسر لهم سواء، أكان معتدلاً أم متطرفاً، فالذهن المُحصن بالدين السديد قادر على رفض كل ما يخالف معانيه السامية في حين أن الذهن الخالي المُسطح قابل لاستقبال كل شيء.

فتهميش الدين أو القفز من فوق بعض نصوصه ليس عاملاً لتقويض الإرهاب، إنما هو فاعل أساسي في الاستجابة لمفاهيمه العنيفة المغلوطة، بل إنه على مستوى الإرهاب المتأسلم، يُعد الجهل بقواعد اللغة العربية سبيلاً من سبل التورط فيه، لأنها مفتاح رئيسي في فهم النصوص الإسلامية على وجهها الرشيد[28].

أما من يتحدثون عن إلغاء التعليم الديني بزعم أنه يُخرج الإرهابيين، فمنطقهم غير علمي، فالطبيب النفسي مارك سجمان "Marc Sageman"، عضو معهد بحوث السياسة الخارجية الأمريكي، والذي يعد من أهم من قدموا دراسة إحصائية رقمية عن هويات الإرهابيين المتأسلمين، خلُص لأن الغالبية منهم ينتمون لتخصصات العلوم الطبيعية، وأن ندرةً منهم تلقوا تعليماً دينياً بشكل أو آخر[29].

وقد حاول أستاذ علم النفس السياسي قدري حنفي تفسير ذلك[30] بقوله بأن إعداد طلاب التخصصات العلمية لا يتضمن طيلة سنوات تعليمهم مقرراً دراسياً واحداً يتعلق بالمنطق والفلسفة أو تاريخ الفكر أو ما إلى هذا من موضوعات تحمل شبهة تعليم المنهج العلمي أو الإشارة إلى نسبته الحقيقية.

لكن بعيداً عن كل هذا، فإننا نرى أن النظم التعليمية العقيمة تلعب دوراً هاماً في الدفع نحو العنف، فالتعليم مفروض فيه أنه ليس حشواً للمعلومات وإنما هو تعليم التفكير، بمعنى أن يتعلم الفرد كيف يفكر بطريقة منهجية صحيحة، وذاك لن يتأتى إلا بغرس قيم بعينها، مثل الإهتمام بالعلم والثقافة وقبول الرأي الآخر وتفهم نسبية الحقائق الأرضية، وعندها سيكون هناك الفرد المثقف الواعي القادر على التمييز والتعامل مع مشكلاته بصورة صحيحة لا تؤذى مجتمعه[31].

سابعاً .. العوامل الشخصية النفسية

أيضاً العوامل الشخصية النفسية تلعب دوراً في تهيئة الأفراد للإرهاب، فما يعتري الجوانب السيكولوجية من تغيرات تأخذ صورة أمراض أو تقلبات نفسية حادة تعود لأسباب وراثية أو ضغوط مفاجئة من الممكن أن تكون سبباً في الدلوف لدائرة الإرهاب[32]، فكثير من البحوث العلمية أرجعت سلوك بعض الأشخاص الإجرامي لتكوينه العقلي أو العضوي الخارجي أو النفسي[33].

فافتقاد الأفراد لقدرة التفاعل الإيجابي مع الصدمات غير المسبوقة كالأمراض أو التقلبات النفسية الحادة أو الضغوط العصبية المفاجئة أو الإزدواجية التي تصيب البعض بسبب التناقضات المجتمعية السائدة، والهوة القائمة بين ما يتلقونه من قيم ومبادئ والواقع بكل مراراته، تعد أسباباً معتبرة في هذا الخصوص[34].

وعلى ذات السياق تأتي العُقد النفسية، كالشعور الحاد بالظلم أو النقص أو التهميش، فالشعور بالظلم أو اليأس قد يدفع البعض لقتل النفس، بل والآخرين، من أجل إحداث تغييرات جذرية يعتقدون فيها[35]، كما أن الإحساس بالنقص المادي أو الجسماني يتحول عند مرحلة معينة لشعور حاد بالنقص الاجتماعي، بسبب عجز الفرد عن تلبية متطلباته الحياتية، فيحاول التعويض عن طريق السلوك الإجرامي أو الإرهابي.

والتقلبات النفسية التي يمر بها الشباب، وهم الفئة الأكثر جنوحاً للإرهاب، بما تتسم به مرحلتهم العمرية من ارتباك وتعقيد، ففيها يسعون لتكوين هويتهم، وفيها تُعاش التجارب العاطفية والانفعالية والمعرفية بكثير من الحدة والكثافة، فإذا ما شاب كل هذا أو بعضه العطب أو الفشل فإنها قد تدفع لا شك لطريق العنف[36]، بل ان مجرد رغبة الشاب في إثبات الذات أو التميز أو البحث عن مغامرات يكتشف فيها قدراته قد تدفع به إلى الإرهاب .

وهكذا تتعدد العوامل الشخصية النفسية المساعدة على نشوء الإرهاب ما بين النرجسية (حب النفس والتعالي) والميول العدوانية الموجهة للذات أو الآخر، وضعف الأنا العليا (سيطرة النفس الأمارة بالسوء)، والإحباط الناجم عن الفشل في بلوغ الأهداف، وهذاءات العظمة (اعتقاد الشخص بأن له مكانة مرتفعة دون سند) وهذاءات الاضطهاد (اعتقاد الفرد في أن هناك من يكيد له) والتبلد (نقص المشاعر).

وأيضاً العوامل التدميرية التي تدفع الأفراد لأن يسلكوا سلوكاً عدوانياً تخريبياً يتحول بمرور الوقت، كما يقول عالم النفس الألماني الأمريكي إريك فروم، لما يشبه العبادة أو السبيل لتحقيق الانتشاء والسعادة، فكل من لا يُذعن لهم يستحق السحق الكامل على نحو يطابق ما يعرف بعقدة بروكست[37] .

بالطبع هناك من يذهب لنفي تأثير تلك الدوافع النفسية على الإرهاب، كـ جيرولد بوست "Jerrold Post" المتخصص بعلم النفس السياسي والإرهاب، الذي استبعد فكرة أن الإرهابيين ليسوا سوى أفراد يعانون من اضطرابات نفسية، لكن هناك من يرى عكس هذا، كعالم الاجتماع الإنجليزي ولسون "Wilson"، الذى يؤكد على أنه إذا كان البؤس وعدم التساوي الاجتماعي قد كان في الماضي الحاضن الرئيسي للعنف، فإن الوضع قد تغير جذرياً، حيث أصبح العالم الرأسمالي المعاصر يؤدي، بما يتسم به من إفراط في الديمقراطية والحرية والمستوى المرتفع من الرفاهية والتسلية والوعي الشخصي والمسئوليات الاجتماعية، لضياع الاستقرار الداخلي وانفجار العنف والإرهاب[38].

والحقيقة أننا نرى أن الإنسان، سواء أكان عادياً أم إرهابياً، بعصرنا الكثير التحديات والضغوط، يعاني من نقاط ضعف نفسية قد تصل لحد المرض أو تحوم حوله، فالخبرة العملية تشير لأن نسبة ليست بالقليلة من الإرهابيين يعانون بشكل أو آخر من عوار نفسي ما، نقطة ضعف، مؤشر استجابة سلبي لوقائع الحياة وتقلباتها، دون أن يعني هذا أنهم مختلين عقلياً، على الرغم من أن تصرفاتهم غالباً ما تكون خارجة عن التيار العام.

وحالة البين بين تلك، أي الأشخاص الذين هم لا مرضى نفسيين ولا أصحاء بشكل تام، يشكلون بهذا الإطار إشكالية كبرى، لاسيما إذا ما كان لديهم قناعات غير مأمونة، فلا يمكن إيداعهم بمصحات نفسية أو إجبارهم على تلقي علاجات طبية أو إيداعهم بالسجون، فهم يحيون بشكل قريب من المعتاد وإن كان فيه شيء من الغرابة، وبنفس الوقت لا يمكن استبعاد احتمالية تورطهم بأعمال عنف.

فالأعراض النفسية الطارئة أو غير المكتملة بالمعنى السائد، والاضطرابات الشخصية المفاجئة، تمثل عاملاً هاماً في تورط البعض بالإرهاب، تماماً كما أن المرضى النفسيين، بالمعايير الطبية الشائعة، يقومون بأعمال إرهابية، فكثير من حوادث الخطف، خاصة الطائرات، يرتكبها مرضى عقليين أو مختلين نفسياً، فالخواء النفسي والفراغ الإنساني والإحباط واليأس عوامل شاهدها كل من خبر الواقع العملي وتعايش مع الإرهابيين، وأيضاً موات الضمير والنزعة التدميرية وتضخم الذات.

ثامناً .. الدوافع التاريخية

أما الصراعات التاريخية فلها هي الأخرى دور في تسبيب الإرهاب، فالمجازر التي ارتكبتها دول أو جماعات في مواجهة دول أخرى أو جماعات عرقية أو قومية أو دينية، والتي لا يخلو منها زمن من الأزمنة، عادة ما تخلق عداءات متأصلة لدى الأجيال المتعاقبة، على نحو يدفعها حينما تأتى الفرصة الملائمة للانتقام لنفسها ولأسلافها .

ومن أمثلة تلك الصراعات التاريخية التي كانت سبباً لتوريد العنف أو الإرهاب، ما كان بين الأرمن والأتراك بمطلع القرن العشرين، والذى على أثره قام جيش التحرير الأرمني باستهداف رعايا تركيا ومبعوثيها الدبلوماسيين، وأيضاً ما كان بين السنة والشيعة والأكراد وغيرهم بأكثر من مكان، وما كان من تناحرات قومية بين الأيرلنديين والبريطانيين، أو ما بين الباسكيين والأسبان، أو ما كان بين القوميات التي برزت بعد تفكك يوغسلافيا والاتحاد السوفيتي، كما هو الحال بين الشيشان والروس.

تاسعاً ..الدوافع الإعلامية

أما الإعلام فتأثيره في صنع مسببات الإرهاب وتهيئتها لا شك فيه، فالإعلام كان ومازال من أقوى الأسلحة التي عرفها الإنسان في التأثير على الآخرين، وقد تعاظم دوره وتنوعت وسائلة بعد التطور المُذهل الذي لحق بالاتصالات وتقنياتها، فالإعلام صار يلعب دوراً مماثلاً، إن لم يكن أكبر من التعليم، في تشكيل العقول والوجدان.

وعلاقة الإعلام بالإرهاب قديمة، فالإرهابيون منذ أقدم العصور يتعمدون اختيار أزمنة وأمكنة حساسة ذات أثر إعلامي لارتكاب جرائمهم، حتى من قبل اختراع وسائل الإعلام بشكلها المتطور، فالبعض يرى أن الإرهاب في التحليل الأخير ليس إلا عملاً دعائياً.

فالتشكيلات الإرهابية تسعى دائماً لاستغلال وسائل الإعلام في إيقاع الرعب والخوف والقلق لدى الجماهير المُستهدفة بالتركيز على أعداد الضحايا وحجم الخسائر المادية والتحذير من المستقبل المجهول، فالعمل الإرهابي لا يستهدف فقط الضحية المباشرة، بل طرف ثالث يسعى للوصول إليه برسالته، كما أنها تسعى لاستغلاله في الحصول على تأييد الرأي العام من خلال شرحها لوجهة نظرها.

وقد تضاعف اهتمام الإرهاب بالإعلام بعصر الإنترنت، فالإرهابيين صاروا يعتبرونه ساحة صراع وليس مجرد وسيلة دعاية أو تبادل معلومات انطلاقاً من قناعتهم بما يعرف باستراتيجية الحروب غير المتماثلة[39] التي انبثقت منها حروب الإعلام غير المتماثلة، التي ترمي لاستخدام الإعلام لإعادة صياغة ساحة الصراع أو المعركة بهدف الحصول على أهداف بعينها.

ويعتبر كيورج ديتز George Dietz، أحد مروجي النازية الجديدة، من أوائل من استخدموا الإنترنت لبث أفكاره المتطرفة، فاستخدم بعام 1983 أنظمة Bulletin Board system كطريقة للتواصل مع الأعضاء والمتعاطفين، وتبعه بعام لويس بيم Louis Beam في 1984، المروج لأيديولوجية العنف الآري والمتأثر بأفكار حركة KKK المتطرفة[40]، بإنشائه لموقع شبكة الحرية الآرية الداعم لأيديولوجيته[41].

ثم تبعهما بذات الطريق الأمريكي اليميني المتطرف توم ميتزجر Tom Metzger مؤسس حركة المقاومة الآرية البيضاء، حيث أسس مجموعة بريدية إليكترونية لنشر أفكاره المتطرفة والتواصل مع أتباعه، فقد شهدت ثمانينات وتسعينيات القرن الماضي تنامياً في عدد مواقع التطرف على الإنترنت التي تبث الكراهية وتحرض على الإرهاب.

وقد كان لجماعات اليمين المتطرف الصدارة بهذا خاصة بعد قيام بلاكدون Blackdon المنتمي لتنظيم النازيين المنبثق من مجموعة KKK بالولايات المتحدة الأمريكية بإنشاء عام 1995 موقع جبهة العاصفة Storm Front، والذي يُعد من أكثر المواقع الإلكترونية التي حرّضت على الكراهية والعنف.

وعلى مستوى الإرهاب المتأسلم لم يختلف المشهد كثيراً، وإن جاء متأخراً بالقدر الذي يجسد فارق التقدم التكنولوجي بين الشرق والغرب، فمنذ ثمانينات القرن العشرين والإرهابيون المتأسلمون يُدركون أهمية الإعلام بشكل عكسه ترويجهم لشرائط كاسيت وفيديو تحوي مواداً تخدم منظومتهم، وبمرحلة لاحقة، استخدموا الإنترنت، خاصةً تنظيم القاعدة الإرهابي، الذي أيقن أهميته كساحة جديدة في الصراع.

أما داعش الإرهابية، فذهبت لما هو أبعد بكثير، فقد اعتمدت منظومة إعلامية ضخمة ومعقدة، عكسها ما جاء بدراسة لمعهد بروكنجز الأمريكي عن أنها أصدرت فيما بين يناير 2014 وسبتمبر 2016 ما يقرب من 845 منتجاً إعلامياً سمعياً وبصرياً، أي بمعدل أكثر من إصدار واحد يومياً، وأن لها 29 وجهة إنتاج إعلامي، بعضها يُنتج رسائل دولية والآخر يوجه رسائله لجمهور بلدان بعينها، وأنها تستخدم حسابات على تويتر لترويج رسائل تتم صياغتها بشكل يجذب الشباب بالدرجة الأولى[42].

وإذا كان الإرهاب يعتمد على وسائل الإعلام لتوصيل رسالته بصرف النظر عن قيمتها أو شرعيتها، انطلاقاً من قناعة بأن تغطيتها لنشاطاته بمثابة أكسجين دعاية له، على حد تعبير رئيسة وزراء بريطانيا السابقة مارجريت تاتشر، فإن الإعلام كذلك يرحب بتغطية الفعاليات الإرهابية لأن شغله الشاغل دائماً يكمن في البحث عن الانتشار والمبيعات باعتبارها مادة تستجيب لاحتياجات فطرية، فالإنسان كائن فضولي يتوق لمعرفة المُثير ويجرى وراء القصة ليعرف كيف ومتى حدثت؟

إذن فالعلاقة بين الإعلام والإرهاب وثيقة وذات طبيعة سيكولوجية بالدرجة الأولى، فهناك تعايش ومنفعة مشتركة بينهما، فالإرهابيون يحققون الكثير من تغطية الإعلام لفعالياتهم، وبالمقابل فإن وسائل الإعلام تحقق هي الأخرى الكثير من وراء تغطيتها للأحداث الإرهابية.

وهنا ينبغي الالتفات لأن غالباً ما يكون هناك طرف آخر يدخل في العلاقة بين الإعلام والإرهاب ليتلاعب بالطرفين أو يذهب بأحدهما أو بهما معاً لحيثما يبتغي، كأن يتم دفع وسائل الإعلام لتُكبر صورة الإرهاب بنقطة بذاتها أو لتضخيم بشاعة نوع من أنواعه دون الأخرى.

وهناك نظريتان أساسيتان في تفسير طبيعة العلاقة بين الإعلام والإرهاب والأثر النهائي لتغطية الإعلام للإرهاب على الرأي العام[43]، هما نظرية العلاقة السببية بين الخطاب الإعلامي والإرهاب، التي تذهب لأن تغطية الإعلام لفعاليات الإرهاب وعملياته تؤدي لتكاثرها، ومن ثم يذهب أصحابها لضرورة فرض قيود قانونية ووقائية على وسائل الإعلام لمنع تغطيتها للإرهاب، باعتبار أن مقاومته تتطلب منع التفاعل بينهما .

والحقيقة أن هؤلاء ينظرون لعلاقة الإعلام بالإرهاب من زاوية ضيقة تعتمد على رؤية أمنية مضى زمانها، في ظل ثورة معلوماتية أضعفت من فعالية القيود الحكومية التقليدية، في حين ينبغي النظر للموضوع من خلال الموازنة بشكل كلي بين مجمل ما يترتب من نتائج إيجابية على حرية الإعلام وما تفرزه من آثار سلبية من بينها، بلا شك، ما يجنيه الإرهاب من ورائها من منافع.

فالحرية والإعلام الحر يتيحان فرصة التعبير السلمي لكافة التيارات الفكرية على نحو يقلل حتماً من فرص وجود التشكيلات السرية، سواءً أكانت معتدلة أم متطرفة، في حين أن الكبت والتسلط يخلق مناخاً يساعد على نشوئها، بل ودفعها لتبنى مواقف أكثر سلبية وربما عنيفة أو إرهابية، ومن ثم، فإن إمكانية استفادة الإرهابيين من الإعلام لا ينبغي أن تمثل مبرراً لتكبيله أو تقويض حريته.

ولا يدحض في هذا القول بأن الإرهاب يضرب الآن بأعتى الدول الديموقراطية ذات الإعلام الحر، فالإرهاب هناك يعود أساساً لغياب العدالة الاجتماعية والتهميش الاقتصادي والازدواجية في تطبيق المعايير الدولية، فالحرية هناك هي من حدّت بشكل كبير من وجود التشكيلات الإرهابية، سواءً أكانت يمينية أم يسارية أم متأسلمة.

أما النظرية الثانية التي تفكك طبيعة العلاقة بين الإعلام والإرهاب فتذهب لنفي وجود علاقة سببية بين الطرفين اعتماداً على أنه لا يوجد دليل علمي أو عملي على أن التغطية الإعلامية للإرهاب هي المسئولة عن مضاعفة عملياته الإجرامية، وبالطبع يتبنى أصحاب هذه النظرية الدعوة لعدم فرض قيود على الإعلام أو التدخل في أداء رسالته، سواءً بالنسبة لقضايا الإرهاب أو غيرها.

بل إنهم يؤكدون على أن حجب الإرهابيين عن وسائل الإعلام هو المسؤول عن زيادة عنفهم، لأن الإرهابي يريد أن تصل رسالته إلى الطرف الثالث، فإن لم تصل بالإعلام، فإنه يعمد لتكرار الحوادث واستخدام أساليب أكثر بشاعة وانتقاء أماكن وأزمنة تتيح له إلحاق أضرار أكبر بما يجعل رسالته العنيفة تحقق الغرض منها، ويستشهدون على صحة مذهبهم بمقولة منسوبة لإرهابي يقول فيها «إذا كان إلقاء الزهور في الميادين العامة يمكن أن يصل بقضيتنا إلى المُستهدف منها لتوقفنا عن إلقاء المتفجرات».

وبعيداً عن تلك الجدالات النظرية، فالواقع يؤكد على أن العمليات الإرهابية قادت معظم الحكومات لفرض قيود على الإعلام، فمنها من أغلق الباب كلياً والآخر جزئياً، كما أن بعضها قام بإنشاء ما يمكن تسميته بالإعلام المضاد أو الكتائب الإليكترونية التي ترد وتشكك باستخدام أساليب متنوعة.

وما بين النظريتين، هناك[44] من يزاوج بينهما في موقف نراه الأقرب للواقع، فتعاطي الإعلام مع الإرهاب لا يرتبط حتماً أو دائماً بعلاقة سبب ونتيجة، كما أنهما لا ينفصلان عن بعضهما بشكل قاطع، فما بينهما علاقة من نوع ما، يحكم تفاعلاتها ونتائجها الظروف المجتمعية المحيطة، فحرية الإعلام لا يمكن أن تُفهم على أنها سبب للإرهاب، بل إن غيابها هو الأقرب ليكون سبباً له، فالعنف ينمو أكثر حينما تكون المجتمعات مُغلقة لا تتقبل الرأي الآخر.

لكن بنفس الوقت لا يمكن تجاوز أن المعالجة الإعلامية للقضايا الإرهابية لها أثرها في بناء الرأي العام، سواءً أكان مؤيداً أم متعاطفاً أم رافضاً، فالتشكيلات الإرهابية والداعمين لها يسعون لا شك للاستفادة من الإعلام، سواءً بأساليب يتعمدونها أو عبر استثمارهم لأخطائه أو لنتائج حتمية له يصعب تجنبها.

فالإعلام بوسائله التقليدية أو المتطورة يساهم بشكل أو

آخر في تنشئة أو تهيئة بعض أسباب الإرهاب، أو في دفعها للخروج من مكامنها، وهذا يحدث أما بفعل مُتعمد من جانبه، وإما دون قصد منه، بفعل طبيعة النتائج المترتبة على أدائه لرسالته، أو من خلال استغلال الإرهابيين له ولإمكانياته وحرياته وانطلاقاته الواسعة.

فالإعلام مرآة لكل المجتمعات، فما تناولناه من دوافع سياسية واجتماعية وثقافية واقتصادية هو من يعكسها ويجسدها لدى الأفراد، فيتفاعلون معها، إما بشكل طبيعي، أو على نحو يدفعهم إلى العنف والإرهاب، والإعلام هنا لا يمكن تحميله الخطأ، فهذا دوره، لكنه في النهاية يفعل هذا ويساهم دون عمد في إشعال صدور جرحها الواقع.

كما أن التغطية الإعلامية لحوادث الإرهاب إذا لم تكن مهنية واحترافية وموضوعية يمكن أن تُكسب الإرهابيين تعاطف البعض على نحو يُمكن أن يُمهّد لقناعة مثل هؤلاء بمشروعهم المنحرف، ومن ثم يمكن أن ينضموا لهم لاحقاً، فالإعلام يجب أن يعكس الحوادث بطريقة لا تعطي القائمين عليها فرصة أن يتحولوا لأبطال أو ضحايا، دون الإخلال بحق الأفراد في معرفة الحقيقة.

على كلٍ، فالإعلام يلعب دوراً يصعب تجاوزه في صناعة الإرهاب، فالإعلام الذى يصيغ مشاعر وسلوكيات منحرفة، خاصةً لدى النشء، يساهم، ولو بشكل غير مباشر، في دعم الإرهاب، والإعلام الذى يسيطر عليه التوافه والمنافقون ممن ينشرون الأكاذيب والفضائح، من شأنه أن يخلق فراغات بالنفوس يمكن لأصحاب العقائد المفرطة أو الأفكار المميتة[45] استغلالها.

والإعلام الذي يفتح المجال واسعاً لمفاهيم منحرفة دينية أو علمانية متطرفة في غلوها يهيئ النفوس للعنف والعنف المضاد، فالاثنان وجهان لعملة واحدة أو قناتان تصبان في معينٍ واحد يتغذى المتطرفون والإرهابيون منه.

والآلة الإعلامية التي تقوم بشكل واضح لا لبس فيه بتناول الإسلام ومقدساته على نحو سلبي، يخالف كل المبادئ والقيم والأعراف الأخلاقية تحت زعم ممارسة الحرية[46] أو التنوير، من شأنها أن تبث ثقافة الكراهية وتخلق حالة من الرعب منه بأوساط العامة، وتعمق من ظاهرة الإسلاموفوبيا بكل تداعياتها العنيفة[47].

وشبكات الإنترنت وغيرها من الوسائل الإليكترونية، التي نجحت التشكيلات الإرهابية في تحويلها لإعلام قائم بذاته، يماثل في تأثيره إن لم يكن يتفوق على كثير من وسائل الإعلام الرسمية أو التقليدية، تساهم بلا شك في تهيئة أسباب الإرهاب.

وهنا ينبغي الالتفات لأن مثل هذه الوسائل المتطورة، تُعد بما تمثله من أدوات ينشر من خلالها الإرهاب أيديولوجياته، بمثابة وسائط بديلة أو تعويضية لما كان يحدث في الماضي من تواصل مباشر بين دعاة الإرهاب ودوائر استقطابهم، هذا بالطبع بالإضافة لما تلعبه من أدوار أخرى في التجنيد والتدريب والتمويل وغيرها من أعمال الإرهاب التنظيمية.

إجمالاً، فإنه إذا كان الإعلام جزءاً من المشكلة، فإنه جزء من الحل أيضاً، لكن هذا لن يتأتى بتلافي سلبياته فقط، وإنما كذلك بوضع رؤية منهجية متكاملة له تَحول دون أن يؤدي قيامه بوظيفته، في تغطية فعاليات التشكيلات الإرهابية وتحليلها، لنوعٍ من الترويج لها من خلال نقدها وتفنيدها وتسليط الضوء على المسكوت عنه في أجنداتها، فجانب رئيسي من التأثير الذي يريد الإرهاب تحقيقه يعتمد على الإعلام بالدرجة الأولى[48].

وبعد، فمن الأهمية بمكان أن نعي أن الإرهاب لن يفلح في تحقيق مراده بشكل دائم أو مُستمر، فالإرهاب قد يُهدد، يُقلق، يُضعف، يتقدم، ينتصر جزئياً، لكنه بكل الأحوال لا يستطيع أن يحدث ما يفوق هذا، فالهزيمة والفشل هو مصيره المحتوم شريطة أن نُحسن قراءة دوافعه وتشخيص مسبباته والتعامل معها على نحو يحدّ من أثرها، إن لم يكن يستأصلها من جذورها، بالاستعانة بالأصول العلمية الراسخة والخبرات الواقعية النقية، تلك كلمة التاريخ وعبرته المتكررة التي يغفل عن استيعابها من يرفعون رايته، وربما يتغافلون عامدين عنها لهوىً ضال .

قائمة المصادر والمراجع:

1. هناك فرق بين المحاربة أو المواجهة والمكافحة، فالمواجهة تفترض وضوح من نواجهه ومعرفة مواقعة وخططه وأساليبة وأسلحته، وهنا يكون استخدام القوة الأمنية ملائماً. أما المكافحة فهي مرحلة سابقة على هذا، تُعنى بالمنع قبل القمع، وبالبحث عن عدو خفي يستتر خلف مظاهر مشروعة أو غير مشروعة (محمد مؤنس محب الدين، تحديث أجهزة مكافحة الإرهاب وتطوير أساليبها، الرياض، جامعة نايف للعلوم الأمنية، 2006، ص113)
2. خليل العناني، الإسلام السياسي.. الظاهرة والمفهوم، القاهرة، المركز الدولي للدراسات المستقبلية والاستراتيجية، 2007، ص18 وما بعدها.
3. خالد حنفي علي، مكافحة الإرهاب المعولم.. وبناء ذهنيات بديلة، القاهرة، مجلة السياسية الدولية، العدد 217، ملحق اتجاهات نظرية، الأهرام، يوليو 2019، ص 3.
4. هبه رءوف عزت، مابعد الدولة وما قبل القرون الوسطى، القاهرة، مجلة الديموقراطية، العدد رقم 58، سبتمبر2015، الأهرام، ص 11.
5. بمرحلة معينة من التسعينيات، كان هناك كوادر إرهابية تتعمد إدخال من عصى عليها تجنيده بدوائر الاشتباه الشرطي لكى يتعرض للإجراءات الأمنية، فتستغل هذا في كسر عصيانه وتحفيزه على الانضمام لها.
6. عبد البارى عطوان، الدولة الإسلامية.. الجذور .. التوحش .. المستقبل، دار الساقى، لبنان ,2015، ص 102.
7. ساره عبد العزيز سالم، تأثيرات العولمة الاقتصادية في دوافع الإرهابي، القاهرة، مجلة السياسية الدولية، العدد رقم 217، ملحق اتجاهات نظرية، الأهرام، يوليو 2017، ص 19 - 20
8. مجدي صبحي، عن العلاقة بين الاقتصاد والعنف، القاهرة، مجلة الديمقراطية، العدد رقم 67، الأهرام، يوليو 2017، ص 53
9. Alan B. Krueger & Jihka Maleckova, Education Poverty, Political Violence & Terrorism
10. محمد المتولي، التخطيط الاستراتيجي في مكافحة جرائم الإرهاب الدولي، جامعة الكويت، 2006، ص 442.
11. خضير ياسين الغانمي، ظاهرة الإرهاب الدولي، العراق، مجلة جامعة أهل البيت، العدد رقم 16، ص 307.
12. سمير مرقص، في مواجهة أيديولوجيات العنف، القاهرة، مجلة الديموقراطية، العدد رقم 67، الأهرام، 2017، ص38.
13. عزة هاشم، السمات النفسية والإدراكية.. الإرهابي المتعولم، القاهرة، مجلة السياسية الدولية، العدد رقم 217، ملحق اتجاهات نظرية، الأهرام، يوليو 2019، ص 25.
14. وليد كاصر الزيدي، الإسلاموية المتطرفة في أوروبا، بيروت، المركز العربي للأبحاث، 2017، ص33.
15. المعتقدات التي تحدد هوية الفرد وشخصيته وتجعله جزءآ من الجماعة التي ينتمي إليها.
16. لا أعتقد أن هناك مجتمع نفى فكرة الدين من حياته بصورة كاملة، بدليل شواهد الواقع بأعتى العلمانيات الشاملة كاشتراط انتماء الرئيس لدين أو مذهب معين، أو الالتزام بطقوس دينية في تنصيب الرؤساء و الملوك. كل ما في الأمر أن هناك تحلل من المحرمات الدينية في السلوك، لكن يبقى جذر الدين كامناً بأعماق الكل أفراداً ومجتمعات.
17. حمدي عبد الرحمن، جيولوجيا التطرف العنيف في أفريقيا وأزمة النموذج المعرفي السائد، القاهرة، مجلة الديموقراطية، العدد 67، الأهرام، 2017، ص 67 - 68.
18. المرجع ذاته، ص 69.
19. Bertrand Badie, culture et politique, Paris, economica, 3 edition, 1993, p 159
20. الآراء والعقائد والفلسفات التي يؤمن بها شعب أو حزب أو جماعة .
21. ضياء حسنى، الإرهاب في الغرب بين راديكالية الإسلام وأسلمة الراديكالية، القاهرة، مجلة الديمقراطية، العدد 67، الأهرام، يوليو 2017، ص 64.
22. عمرو الشوبكي، تحولات جماعات العنف وتحديات الإرهاب الجديد، القاهرة، مجلة الديمقراطية، العدد رقم 67، الأهرام، يوليو2017، ص 44.
23. جون اسبوزيتو وداليا مجاهد، من يتحدث باسم الإسلام، القاهرة، دار الشروق، 2004، ص 193.
24. شبل بدران، التربية المدنية، القاهرة، مكتبة الأسرة، 2009، ص 30.
25. السيد يسين، إعادة اختراع السياسة من الحداثة إلى العولمة، القاهرة، مكتبة الأسرة، 2006، ص 125.
26. عبد الوهاب المسيري، العلمانية الشاملة والعلمانية الجزئية، القاهرة، دار الشروق، 2002، ص 134.
27. تعبير حرب الأفكار والعقول صكه بوول وولفيتز نائب وزير الدفاع الأمريكي الأسبق عام 2002 .
28. كان بعض قادة جماعة المسلمين، المعروفة إعلامياً بالتكفير والهجرة، يؤكدون على أنهم انضموا لها بناءً على فهمهم الخاطئ للمحتوى اللغوي لحديث نبوي، وأنهم خرجوا منها انطلاقاً من الحديث نفسه، لكن بعد أن استبان لهم مدلولاته اللغوية الصحيحة.
29. قدري حنفي، العلاقة بين التطرف والإرهاب، القاهرة، مجلة الديمقراطية، العدد رقم 67، الأهرام، يوليو 2017، ص 35-34
30. المرجع ذاته، ص 35.
31. حسن بكر، العنف السياسي في مصر، القاهرة، مكتبة الأسرة، 2005، ص 207.
32. فتح الرحمن يوسف عبد الرحمن، أسباب بارزة لظاهرة الإرهاب.. تحليل سوسيولوجي، موقع مركز سمت للدراسات الإلكتروني smtcenter.www. net بتاريخ 27 مارس 2017.
33. خضير ياسين الغانمي، ظاهرة الإرهاب الدولي.. العوامل الدافعة وكيفية معالجتها، مرجع سابق.

34. حسن بكر، العنف السياسي في مصر، مرجع سابق، ص 253.
35. دراسة صادرة من الأمم المتحدة عن الإرهاب عام 1997.
36. بدون، ملخص بحوث الكتاب (125) علم نفس الإرهاب.. الأفراد والجماعات الإرهابية، مركز المسبار للدراسات والبحوث، 2017
37. الحدّاد اليوناني الأسطوري الذى كان يخطف العابرين ويضعهم على أسرة ذات طول ثابت، فإن كانوا أطول منها يقوم بضغطهم، أما إذا كانوا أقصر، فيقوم بمطّهم، وبالحالتين يكون المختطفين ضحايا لرؤية محددة، فإن أفلتوا من الموت بسبب ما حدث لهم، فإنهم يحيون مشوهين نتيجة لخضوعهم لرؤية لا يدركونها.
38. فتح الرحمن يوسف عبد الرحمن، أسباب بارزة لظاهرة الإرهاب.. تحليل سوسيولوجى، مرجع سابق.
39. يعرِّف هاينز دينتر Heinz Dinter الحروب غير المتماثلة بأنها عمليات تهدف لاستغلال نقاط ضعف الخصم دون الدخول في صراع تقليدي، أي جيش مقابل جيش (محمد الجندي، متاهات الإرهاب، القاهرة، مجموعة النيل العربية، 2020، ص 81).
40. اختصار لـ كوكلوكسكلان "kukluxklan" وهي حركة يمينية متطرفة لها تاريخ طويل منذ أواخر القرن التاسع عشر في الولايات المتحدة، ومعروف عنها استخدام العنف والإرهاب .
41. المرجع ذاته، ص 74
42. محمد كمال، الإرهاب والإعلام، موقع حفريات الإلكتروني com.hafryat.www بتاريخ 21 نوفمبر 2017
43. بسيوني حمادة، الإرهاب والخطاب الإعلامي، مؤتمر التنمية والإرهاب والأمن في الشرق الأوسط، جامعة القاهرة، ديسمبر 2007، ص 11 وما بعدها.
44. المرجع ذاته، ص 13 - 14
45. هي التي فقدت جذورها وهويتها وقيمتها الثقافية .
46. مفهوم الحرية الذي جاء بإعلان حقوق الإنسان لا يتوافق إطلاقاً مع ما نرى من تصرفات مسيئة للأديان ، فهو يعني حق الفرد في أن يعمل كل ما لا يضر الآخرين، وهو ما يتفق مع مفهوم الإسلام الذى يقوم على قاعدة 'لا ضرر ولا ضرار'، فالحرية في الإسلام مكفولة مادامت تقوم بحفظ الدين والأخلاق، فإذا تعدت هذا، أصبحت اعتداء وجب وقفه.
47. جلال الدين محمد صالح، الإرهاب الفكري.. أشكاله وممارساته، الرياض، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، 2008، ص39-40.
48. ورقة عمل مقدمة من مركز الجمهورية لدراسات مكافحة الإرهاب بعنوان موقف الصحفيين المصريين من إصدار قانون لمكافحة الإرهاب.